المتشامخ بادعائه ، سوى حلقة في تلك السلسلة مقيدة بما يسبقها وما يتلوها من الحلقات .

مثل هذا النظام لا يحتمل الخلل . فإذا اختلّ بعضه تفكك كلّه وحينئذ جاز لنا أن ندعو اختلاله « فوضى » . هي الفوضى إذا زرعت بلوطة فنبتت وردة . أو قمحة فنبتت أرزة . أو رميت حجراً إلى فوق فلم يهبط إلى أسفل بل ظلّ ذاهباً صعوداً في الفضاء . أو إذا باضت الدجاجة فيلاً . والأفعى نسراً . أو إذا طلعت الشمس من المغرب وغاب القمر في المشرق . إذ ذاك يكون الكون قد أفلت من قيود نظامه فأصبح فوضى يُخشى عليه معها من التلاشي .

في الكون نظام واحد ثابت لا يتغير ولا يتبدّل . ومن ميزات ثباته أنّه يتمّم نفسه بنفسه . فهو الحاكم والمحكمة والمحكَّمون . وهو يصدر الحكم في الحال وينفذه في الحال ضد كل من حاد عنه ولو قيد شعرة . وهذا النظام يشمل كل ما في الكون من الأنظمة . ومنها الشرائع البشرية . فهي ضمنه لا خارجة عنه ، تتكيّف به ولا يتكيّف بها .

لو كان للأنظمة البشرية ما للنظام السرمدي من الثبات وكان لها أن تنفّذ ذاتها بذاتها لصحّ لنا أن ندعو اختلالها أو فقدانها فوضى . أما وهي خاضعة للنظام الشامل فكل ما يطرأ عليها من التبديل والتحوير ليس إلا امتثالاً لذلك النظام — لا